فاذا كان اولاد هذا البيت كلهم او اكثرهم ينقطعون للباحث العلمية ويخدمون العلم بمالهم ويجرون في انفاقهِ على سنة العلماء اي لا ينفقون منهُ جزافاً بقيت ثروة البيت الى ما شاء الله واستفاد نوع الانسان منهُ فوائد لا تقدَّر وهذا احسن مستقبل نتمناهُ لهُ

البرتغال وجمهوريتها

قيام الجمهورية في البرتغال سرَّ قوماً وساء آخرين حتى من غير سكان تلك البلاد . سرَّ الذين يقولون ان الناس متساوون في الحقوق وانهُ ليس لاحد سلطة مشروعة على آخر الاَّ اذا اراد هذا ان يتسلط الاول عليهِ باختيارهِ . فاذا اتفقت امة على تولية شرٍّ ونها بعض افرادها صار لاولئك الافراد سلطة مستمدة من الشعب . وهذا يقضي بان تكون الحكومات كلها نيابية وان تكون ايضاً جمهورية او ملكية مبنية على مبايعة الشعب . ولا سلطة مشروعة بغير ذلك . فالبرتغال عادت الى الحكومة الطبيعية الصالحة للامم الراقية وستسعد بحكومتها . ولكن ساء عمأها الذين يقولون ان السيادة حق موروث مهما كان اصلها وان على الناس ان يخضعوا لمن حكمهم سواء كان اولئك الملوك برره او فجرة ولذلك سيأول انقلاب الحكومة في البرتغال الى خرابها

الاَّ ان الباحث في احوال البشر يرى ان سعادتهم وشقاءهم غير مرتبطين بنوع حكومتهم فقد تكون الحكومة ملكية استبدادية ولا تضر بالشعب بل يرتقي في عهدها . وقد تكون جمهورية نيابية ولا يرتقي الشعب في عهدها بل يحط . فان للارتقاء اسباباً كثيرة والحكومة سبب منها لا كلها . والغالب ان الحكومة التي تستمرُّ في بلاد هي الحكومة الصالحة لتلك البلاد او كما تكونوا يولَّى عليكم . فاذا اقنا لشعب حكومة منحطة عنهُ رقأها الى ان تصل الى مستواهُ واذا اقنا لهُ حكومة مرتقية عنهُ انحطت رويداً رويداً الى ان تدانيهُ . والحكومة والامة تتفاعلان الى ان تصيرا على مستوى واحد اما بارتقاء الواحدة واما بانحطاط الاخرى

وقد قرأنا لبعضهم حديثاً جرى بينهُ وبين وزير الخارجية في بلاد البرتغال يشفُّ عن آراء الحكومة الحاضرة وآمالها فلخصناهُ في ما يلي . قال الكاتب :—

مشيت نصف الليل في الشارع المؤدي الى دار نظارة الخارجية لاقابل ناظرها السنيور برناديتو مشادو وكنت قد طلبت منهُ ان يسمح لي بمقابلتهِ ومحادثتهِ فسمح وعيَّن تلك الساعة مشيت فرأيت الشوارع خالية من المارة لم اجد فيها الاَّ اثنين من رجال الحرس يسيران

كمن يمشي في نومه الاَّ ان الانوار كانت تتلألأ في كوى نظارة الداخلية ونظارة العدلية ونظارة الاشغال العمومية دلالة على ان عمال الحكومة يصلون ليلهم بالنهار. وكانت المركبات واقفة امام ابواب هذه النظارات منتظرة اصحابها ورأيت امام باب نظارة الخارجية اتومبيلاً أُطفئت مصابيحهُ اقتصاداً ونام سائقهُ فيهِ ولسان حالهِ يقول ان الجمهورية تساوي بين صاحب المركبة وسائقها

وكان باب النظارة مقفلاً فقرعتهُ اولاً وثانياً وثالثاً فقام البواب وفتحهُ وهو منمض العينين وقال لي ان الناظر لا يزال هنا حقيقة ولكن لا يمكن ان يقابل احداً الآن. فابنت لهُ ان الناظر هو الذي عين هذه الساعة لاقابلهُ فيها. وبعد جدال طويل اخذ اسمي ودخل ووقفت استنشق هواء الليل الى ان عاد بعد عشر دقائق وصعد بي الى حيث غرفة الناظر وادخلني غرفة فاخرة الاثاث والرياش يدلُّ حاضرها على مجد ماضيها. وهناك خمسة عليهم سيماء الاناقة والترفع كما يكون كبار الموظفين عادة احدهم نائم في زاوية الغرفة وآخر يتجادل مع وكيل جريدة في امر اوراق الدعوة الى وليمة وطنية واثنان يكتبان. وقابلني احد الكتاب وكأنهُ كان مأموراً بمسايرتي الى ان يفرغ الناظر ويدعوني اليهِ فجعل يحادثني في مواضيع لا شأن لها عندي ولا سيما في امر موظفي الحكومة وكثرة اشغالهم واضطرارهم الى السهر حتى الساعة الرابعة صباحاً والقيام الساعة الثامنة. وقالي ان رجال الحكومة الجمهورية يضحون النفس والنفيس في خدمة وطنهم ولكن لكل منهم عائلة وعليهِ ان يهتم بامرها فلا يجوز لهُ ان يخلف صحتهُ ويترك عائلتهُ ولا سند لها. وبمثل هذا الحديث قضينا ساعة زمانية ولم نسمع كلمة من غرفة الناظر وكان الموظفون يدخلون اليها باوراق ثم يعودون. ونهض الرجل الذي كان نائماً في الزاوية وزرَّ رداءهُ وانطلق وخفت ان يكون الناظر قد نسي دعوتهُ لي والميعاد الذي ضربهُ فقلت لسكرتيرهِ لعلَّ سعادتهُ نسي وقد حان وقت النوم فانا امضي الآن وآتي في وقت آخر. ولما قلت لهُ ذلك نهض ودخل غرفة الناظر من غير استئذان وبعد قليل خرج منها كاتبان ومعهما حملان من الاوراق ودُعيت للدخول

رأيت السنيور برناردينو مشادو جالساً امام مكتب تثير الاوراق المتراكمة عليهِ من غير ترتيب الى كثرة اشغال الحكومة. ولا يدل منظر الناظر على انهُ من رجال الثورة بوجهٍ من الوجوه بل على انهُ من اهل النظر المتصفين بسلامة النية وحب المسالمة. فلما نظرت الى قصر قامتهِ وصغر جسمهِ تذكرت ما قالهُ لي عنهُ رئيس الجمهورية منذ بضعة ايام وهو انهُ رجل جسور يحب بلادهُ كما يحب اولادهُ. وتذكرت ايضاً بيتهُ وسذاجتهُ وكثرة من فيهِ من

الاولاد واستغربت كيف ان رجلاً مثله يلقب بالاب مشاو يستطيع ان يقلب عروش الملوك ويحازب رجلاً غشوماً حاد الطبع مثل السنيور افنسو كوستا . ولكن الثورات يشترك فيها الفيلسوف والسفاح ويسيران معاً نحو اسمى الاغراض ونحو مصلحة الجمهور

ثم دار الحديث بيننا وكان الناظر يتكلم بصراحة كمن يقصد ان يبلغ كل معنىً من معانيه الى ذهني . ابتدأ بقوله ارى انك كنت تجول في شمال البلاد ويظهر مما كتبته انك تعتقد ان الناس هناك لا يزالون دينيين منقادين الى رجال الدين . اسمع ما اقول لك انتم الاجانب لا ترون الا الظاهر ولكني اقول لك ان لي هناك بعض الاملاك وانا اعرف الناس معرفة تامة واؤكد لك ان ليس لهم ضلع مع رجال الدين . هم على غاية ما يكون من النبالة وعزة النفس وحب العمل كل واحد منهم لا يتأخر عن ان يفتدي بلاده بنفسه ويضحي كل شيء لاجل مجدها وشرفها ولكن ما من احد منهم يضحي اقل شيء لاجل الدين او لرجال الدين

فقلت له ليس من العدل ان نطلب من الناس الآن ان يضحوا انفسهم لاجل دينهم ونجعل ذلك شرطاً لاثبات كونهم اهل ديانة

فقال كلاً ولكن هم لا يبالون بالدين وما من احد من الاجانب يستطيع ان يعرف حقيقة طباع البرتغاليين اما نحن فنعرفهم كما هم . ولقد كنت اتألم حينما ارى ما يكتب في الجرائد الاوربية ولكن الجرائد تشترى بالمال وحزب الملكية غني

ولما قال ذلك دخل كاتب وفتح درجاً من مكتبه من غير استئذان واخرج اوراقاً منه وسار بها فاستغربت هذه الحرية ثم قلت للناظر اني تكلمت مع كثيرين من الفلاحين ولم ار منهم ما يدل على انهم يودون قلب الحكومة الجمهورية انتصاراً للملكية او للكنيسة ولكنني رأيتهم يلومون الحكومة على السياسة التي اتبعتها ضد رجال الدين وكانوا يذكرون لي ثلاثة امور ينقمونها على الحكومة وهي معاملة الراهبات اخوات الفقراء ومعاقبة قضاة قرنكو والفاه جرائد الملكية وقد اجمعوا على لوم الحكومة لمعاقبتها القضاة

ولما قلت ذلك وثب قائماً وقال ان اخوات الفقراء نساء صالحات بلا ريب ولكن الجمهورية تكره الرهبنات كلها على اختلاف انواعها . واهل الشمال الذين رأيتهم اذا رأوا راهبة من هؤلاء الراهبات قالوا انها تغري بناتنا وتخرب بيوتنا . والنساء ضعيفات كما لا يخفى ويسهل اقناعهن بأن المعيشة الدينية تطلب منهن ان يترهبن وينقطعن عن العالم وقد خربت البيوت بسبب ذلك . وكثيراً ما ينقاد المرء الى شيء يجعله ينقطع له تماماً كما فعلت

انا في تركي بيتي وراحتي لاجل خدمة وطني ولكن الفرق بيني وبين اخوات الفقراء اني بخدمة وطني اخدم بيتي ايضاً واما هنّ فلا يخدمن بيوتهنّ مع ان مكانهنّ الحقيقي هو البيت وقد خلقن ليكنّ ربات بيوت

فقلت لهُ ان الديانة المسيحية تبيح التبتُّل وتندب اليهِ

فقال نعم ولا يصعب على رجالها ان يفسروا تعاليمها حسبما يشاؤون اما الجمهورية فلا تعرف لها ديانة غير طاعة الانسان لضميرهِ وواجباتهِ لابناء نوعهِ

ثم التفت الى مسألة القضاة وقال ماذا يفهم الفلاحون من هذه المسألة وماذا يفهم الاجانب منها . الدول وقفت حولنا تخاطبنا بكلام ثقيل ولكن هل خطر لها حقيقة اننا نقضي عن العصيان . لو فعل النظار ما يطلب منهم لكشت ترى اولئك القضاة الآن في غيابات السجون ولكنهم اظهروا من اللين ما يفوق الاحتمال . وهل عرف احد من المنتقدين علينا ان القضاة قاوموا الجمهورية وطلبوا احالة المسألة الى مجلس الاعيان كأنهم لا يزالون في حكم الملكية

وسمعت حينئذٍ حركة امام الباب والتفت الى الساعة فرأيتها واحدة ونصفاً بعد نصف الليل فنهضت للقيام اما هو فلم يعبأ بالحركة بل قال ان الدول تظن انها احتكرت العدل فلا يعمل بهِ غيرها مع انها لا تزال تتمرغ في حمأة الملكية

فقلت ان امور الحكومة متوقفة على اخلاق رجالها لا على اسمائهم ومناصبهم فقادهُ قولي هذا الى بحث طويل في واجبات الحكومة عزّزهُ بالشواهد الكثيرة من هجل وكُنت الى ان وصل الى قوله اما نحن اهالي البرتغال فقد اخترنا الجمهورية وهي باقية عندنا

فقلت لهُ اذا كان الامر كذلك فما معنى الابتهاج بالملك مانويل لما ساح في الجهات الشمالية من البلاد منذ سنتين

فلم يجبني على هذا السؤال بل سألني « هل قرأت الكتاب المعنون من الملكية الى الجمهورية » وقال انهُ هو قرأهُ في اوقات فراغهِ فذكّرهُ بالشاق التي كابدها في اخراج البلاد من الملكية الى الجمهورية . واشار الى الصحافة فقال انها مطلقة الحرية في البرتغال وكل احد يستطيع ان يكتب ما يشاء

فاشرت الى ما جرى لمنويل هوم كرستو

فنهض قائماً وابعد كرسيهُ وجعل يمشي في الغرفة ذهاباً وايباباً وهو يقول بوقو دفيرو ثم دنا مني وقال ماذا تعرف من امر السنيور كرستو اتعلم انهُ كان جمهورياً فارتدّ عن الجمهورية

اتعلم انهُ رجل شرير وجريدتهُ آلة للشر . الخطأُ الكبير الذي ارتكبناهُ اننا عاملناهُ بالتؤدة ولكن كن على ثقة اننا لا نرضخ للاهانة

فقلت اني اعلم ان السنيور كرمتو المختلف مع ناظر العدلية وانتقد ما يحسبهُ من اغلاط الحكومة الوقتية كما انتقد قبلاً عيوب الملكية

فقال هذا عار ثم دنا من مكتبهِ وتناول نسخة من المجلة الوطنية National Review واشار الى مقالة فيها وقال ان جرائدكم لا تقل عن جرائدنا وقاحة هل قرأت هذه المقالة . لا يجوز ان تطلق الحرية للصحافة الى هذا الحد ولا يليق بحكومتكم وهي تدعي صداقة البرتغال ان تسمح بنشر هذه الاكاذيب

فقلت لهُ ان الحكومات الملكية القديمة لا تستطيع ان تسلط على الصحافة كالجمهوريات الجديدة وانهُ يليق بالفيلسوف الحكيم مثلهِ ان لا يعبأ بانتقاد مثل هذا وان رجال المناصب العالية معرضون للانتقاد دائماً

فقال نعم ولكن اذا رميت احداً بالرحل فلا بد ان يلصق الرحل بهِ . ويظهر لي ان حكوماتكم الملكية ترقبنا الآن بعين الغيرة والجشع لتغتنص الفرص لتخطف مستعمراتنا وهي تعظم هفواتنا وتنوه بالعدل والحرية والمساواة كأننا لا نعرف هذه الامور . . . .

وفتح الباب حينئذٍ فالتفتُّ الى الساعة واذا هي الثانية بعد نصف الليل فنهضت وودعتهُ قائلاً اني اتمنى للجمهورية كل نجاح فان كل امة تنال الحكومة التي تستحقها واهالي البرتغال يستحقون افضل الحكومات . فقال تعال الى هنا بعد عشر سنوات فترى بناء جمهوريتنا المجيد قد تمَّ ولا نطلب منكم الاَّ ان تصبروا علينا وترثوا لنا

اذا دلَّ هذا الحديث على ما يراهُ رجال الحكومة البرتغالية وما يعملون بهِ فقد ارتكبوا خطأً كبيراً في استضعافهم السلطة الدينية على النفوس ولا سيما على نفوس العامة فاننا لا نتصور ان الامر كذلك في بلاد البرتغال الاَّ اذا كانت سيرة رجال الدين فيها نفَّرت الناس منهم واوجدتهم عليهم . وارتكبوا خطأً آخر في مصادرة رجال الدين وكان الاولى بهم ان يغضُّوا الطرف عنهم واذا رأوا منهم مقاومة حقيقية لمبادئ الجمهورية حاكموهم وحكموا عليهم حسب شريعة البلاد او استعانوا بجبارهم على شرارهم فانهُ اذا كانت الحكومة الجمهورية صالحة لتلك البلاد فلا بدَّ من ان يرى العقلاء الفضلاء صلاحها لها و يؤيدوها بكل جهدهم والاَّ فهي غير صالحة لها ووضعها فيها وضع للشيء في غير محلهِ